رسالة المربي

« ظهور المدرسة ، الطريقة النفسية والمنطقية ، التقاليد »

للأستاذ كمال السيد درويش

(بقية ما نشر في العدد الماضي)

لقد عرف الإنسان الطريقة النفسية أولا وعمل بها ثم انتقل

قلت :

— لا شك في أن الإيمان سر من الأسرار المستقرة في القلوب ، ولكن أثره الطيب يظهر في الخارج ظهوراً جليا ؛ فإن العمل يقتضي الإيمان غير العمل يقتضي الكفران ، والسير في طريق الطاعة غير السير في طريق العصيان...

ومن الذنوب ما يغفر ومنها ما لا يغفر ، وأقربها من المغفرة أبعدها عن الإصرار. والصالحات الظاهرية المشوبة بالرياء لا تنفع عند الله ولا عند الناس ، بل لا يصح أن يسمى صالحا ما ليس خالصا ، فإن الرياء إذا اختلط بعمل حبط ، وذهبت الحكمة التي من أجلها شرع ، ولنضرب لذلك مثل الذي يعطي فقيراً ثوبا مكتوبا عليه تلك العبارة : « صدقة من فلان إلى فلان ! »

فإذا كان المقصود من الثوب هو الستر ، فكيف يجمع ذلك الذي زعم أنه محسن بين الستر والفضيحة ، فيكسو العاري بثوب ، ويجرده في الوقت ذاته بمنه وأذاه ؟!

الإيمان في القلب ، ومن السهل استشفافه من آثاره الطيبة الدالة عليه فمن آمن عمل بمقتضى إيمانه ، وسبقت نيته الطيبة عمله الطيب ، فأتى بالخير لأنه خير وكفى ؛ لا ابتغاء الظهور بمظهر الورع والصلاح

وليس اجتناب المعاصي دليلا على اليأس من رحمة الله ، كما أن رحمته سبحانه ليست وقفا على الطائعين وحدهم ، وإنما تشمل العصاة التوابين الذين يرجعون إلى ربهم وإلى أنفسهم نادمين ، ولم يؤيدوا العصيان بالإصرار

عامر بدر

إلى العمل بالطريقة المنطقية . والواقع أنه منذ أن نشأت المدرسة كمعهد علمي متخصص في تربية النشء ، بدأ سلطان الطريقة المنطقية وأخذ يزداد حتى أصبحت في النهاية شبحاً مخيفاً جاثماً على صدور الأطفال الأبرياء . وقد استطاعت هذه الطريقة فرض ديكتاتوريتها على التعليم ولا تزال حتى اليوم . لذلك يمكن القول أن العلة الأساسية في فساد نظم التربية حاليا في جميع ميادينها المختلفة ، سواء في المدرسة أو الأسرة أو المجتمع نفسه ؛ إن هي إلا في العمل بتلك الطريقة المنطقية . وإذا كان الأمر كذلك فما الذي يدعو إلى التمسك بها والخضوع لتيارها ؟ الواقع أن السبب الحقيقي الذي دعا إلى الاعتماد عليها هو ما تمتاز به من سرعة وسهولة . لقد جرب المربي في حياته واستخلص واستنتج ثم رتب خلاصة تجاربه خلال حياته في شكل نتائج وقوانين ونصائح وأخلاق وحكم وأمثال . فما أسهل تلقين ذلك كله للناشئين وحثهم على العمل بها ؛ سواء أرادوا أم لم يريدوا ، قبلوا أم رفضوا ؛ فهموا أم لم يفهموا . إنما المهم أن يحفظوا بعقولهم الناشئة هذه الحكم القيمة والمعلومات النادرة والأمثال السائرة . وكيف لا تكون قيمة نادرة وقد بذلنا كل مرتخص وغال في سبيل الحصول عليها ؟ لذلك يجب على هؤلاء الناشئين أن ينصاعوا صاغرين وإلا فهم شياطين خاسرة لم تكتب لهم الهداية ولم يقدر لهم التوفيق. وإذا ضرب أحدهم بتقاليدنا ونصائحنا عرض الحائط . إذا نأى عنها وأعرض بجانبه سلقناه بألسنة حداد واعتبرناه خارجاً على التقاليد، تقاليد الآباء والأجداد. ومارقا كافراً ملحدا يستحق اللعنة ومختلف ألوان العذاب

تلك هي أول مساوئ الطريقة المنطقية . هي أنها تخلق تقاليد معينة لها حرمتها وقدسيتها ولا يمكن المساس بها . وهنا يحق لنا أن نتساءل ، وما هو الضرر في تقديس التقاليد ؟ وفي الخضوع لها ؟ ولم لا يكون في التقديس والطاعة ما يرغب فيه ؟! يجرنا ذلك إلى سؤال آخر : ولكن ما هي التقاليد ؟ ! نحن نعني بالتقاليد تلك التعاليم التي كانت لدى الإنسان الأول، والتي لازمت المجتمعات الإنسانية منذ أن ظهرت على سطح الأرض ، والتي

لا تزال تحيا وتعيش حتى اليوم سواء فى المجتمع البدائى أو المجتمع الذى وصل إلى أرقى درجات الحضارة والتقدم . هى تعاليم يفرضها المجتمع فرضا على أفراده الناشئين وعلى هؤلاء تقبلها فى خضوع واستسلام دون مناقشة أو كلام، لا لشئ إلا لأنها تقاليد واجبة التقديس . إطاعة الكبير وتوقيره وإطعام الغريب وإيواؤه من بين الأمثلة العديدة على التقاليد السائدة فى مجتمعنا الإنسانى بوجه عام . ولقد اتسع سلطان التقاليد فأصبحت ولها فى كل ميدان سلطان . . وأى سلطان ؟! هى فى القرية غيرها فى المدينة وهى فى مدينة غيرها فى الأخرى، وتجدها تظهر فى الملبس وفى العادات وفى الأخلاق بين جميع الأمم تجدها، وفى مختلف الطبقات تشاهدها . لذلك لا تعجب إذا وجدناها داخل جدران المدرسة بطبيعة الحال . بل يمكن القول أن عملية التربية بعد أن سارت على الطريقة النطقية قد أصبحت هى نفسها تقليدا متبعا . وهنا يحق لنا أن نتساءل . وما السر فى وجود التقاليد ؟! الواقع أن أى تقليد لم ينشأ إلا نتيجة لخبرة عملية مارسها الإنسان على الطريقة النفسية الطبيعية . شاهد الإنسان غيره وقد أصبح كبيرا منا فى حاجة إلى احترام الناس ومعونتهم وتصور حاله لو أصبح مثلها عند ذلك أيقن أن احترام الكبير فيه احترام للجميع ووقاية من التحقير على يد الصغير . لذلك تمسك الإنسان بهذه الفكرة ، فكرة احترام الصغير الكبير وجعلها تقليدا أحاطه — وهو يلقنها للصغار الذين لا يعلمون عن سر حكمتها شيئا — بهالة من التقديس وذلك حتى يضمن بقاءها والعمل بها . وهكذا غدت تقليدا يحافظ عليه أفراد المجتمع . ولذلك يمكن القول أن من الممكن أن نرد كل تقليد ظهر فى أى مجتمع من المجتمعات إلى ظروف خاصة دعت أولا إلى وجوده وأدت ثانيا إلى بقائه كان تكون له أهمية حيوية بالنسبة لحياة المجتمع الذى نشأ فيه . إن الكرم عند البدوى فى البيداء هو تقليد حيوى ضرورى تمليه البيئة الصحراوية . ولقد نمت التقاليد وتنوعت بنمو المجتمع الإنسانى وتحضره

ولكن لم نوافق على أن تصبح التقاليد نفسها أهدافا تربوية ما دامت التقاليد فى حد ذاتها خلاصة الخبرة السابقة للمجتمع الإنسانى مصوغة فى قالب التقاليد لتسهيل المحافظة عليها وفرض الطاعة لها ؟ !

الواقع أن التقاليد إذا كانت تحتوى على خير كثير فإنها تحمل فى طواياها من الشر أضعاف ما تحمله من الخير . ولكن من أين جاء ذلك الشر الذى ترمى به التقاليد ؟! الواقع أن الضرر الناجم عن التقاليد يرجع إلى طريقة تعليمها . . إلى فرضها على الناس مجردة عن الخبرة الحية التى توضح السر فى قيامها والغرض من وجودها والظروف التى نشأت فيها ؛ إلى فرضها منطقيا على الأفراد الجدد فى المجتمع ، هؤلاء الذين لا يدركون من أمرهم ولا من أمر مجتمعهم شيئا كن كريما . هذا صوت المجتمع يأمره فعليه أن يطيع . هو تقليد جرى عليه العرف والناس . ولكنه فى هذا الشهر قليل الدخل مختل الميزانية فهل يخرج على التقاليد ؟ كلا . . ليتكرم . . وإذا لم يجد المال فليستدن نفقات الكرم وليتورط إلى أعماق أذنيه فى الديون — ولن يهمه شئ — لن يهمه إفلاس يهدده ولا إملاق يدمره ما دام قد أرضى صوت التقاليد . وهكذا يصبح الإنسان عبدا ذليلا خاضعا لسلطان التقاليد

إن ضرر التقاليد يأتى من التقيد التام بحذافيرها . . . من تقديسها والتمسك بها والخضوع التام لها . ولكن أى ضرر فى ذلك ؟ ولم لا نتمسك بها ونخضع لها ما دامت كما ذكرنا « الخلاصة النهائية لمجهود الأجداد » ؟ ولابد من وجود سبب رئيسى يؤدى إلى هذا الخضوع وذلك الاستمساك . إن هذا صحيح ولكن التقاليد تحتوى إلى جانب ذلك الخير على شر كثير؛ ولكن كيف جاءها ذلك الشر ؟ إن تفسير ذلك من البساطة بمكان . لقد جبل الإنسان على المباهاة بعلمه ومداراة جهله ونظر فى الحياة فما استطاع معرفة أسبابه من غوامض شؤونها ومظاهرها، بادر إلى ذكره فى الحال ، وما لم يستطع عز عليه أن يكشف عمله جهله ، وتظاهر كعادته بالعلم والمعرفة وأخذ يخترع له من الأسباب والعلل ما يوهم الغير بأنه بكل شئ عليم . كان الرض

ظاهرة غامضة بالنسبة للانسان الأول . ولا تزال ظاهرة المرض غامضة لدى الكثير من المجتمعات البدائية . هم يجهلون أسبابه كما كان الإنسان الأول . ليعللوه إذن بمختلف العلل والأسباب بدلا من الاعتراف الصريح بالجهل التام . هو لعنة من الله ونقمة

فإذا كان المريض صالحا طيبا لا يستحق اللعنة كان المرض في هذه الحالة امتحانا واختبارا . وهكذا تسير التقاليد على هذا المنوال . وفي هذا يكمن الخطر . ذلك أن التقاليد — بتفسيرها الخاطئ لكل ما هو مجهول غامض — تقفل باب التفكير أمام المفكرين ، بل تحول بينهم وبين العمل لمعرفة العلل الحقيقية والأسباب المجهولة للظواهر الغامضة . إن حقيقة المرض بطبيعة الحال ليست في كونه نقمة أو نعمة؛ بل في تلك الجراثيم الحية التي اكتشف العلم الحديث بعض أحوالها ولا يزال يجاهد في سبيل اكتشاف ما خفي عليه من أمورها . ألم يكن هذا التفكير العلمي أول خطوات التقدم العملي في سبيل التخلص من شبح الكثير من الأمراض ؟

حقا إن التقاليد بقدسيتها وديكتاتوريتها وجمودها وادعائها سلاح قتال بل سم زعاف لو تناولته لتربيه لأوردها موارد الهلاك . قد تنفع التقاليد في مبدإ ظهورها ؛ ولكن مضى الزمن وتغير الظروف والأحوال سرعان ما يظهر عيوبها وخطرها . إن التقاليد دائما أبدا تأبى إلا أن تقف حجر عثرة في سبيل كل تفكير حر منتج مبتكر . التقاليد هي الحاجز المنيع أمام رقي المجتمع وتقدمه . هي العقبة الكؤود . هي السلاسل والأغلال .. هي القيود الحديدية ... كم من عقول حجرتها التقاليد فتحجرت ، وآمنت بالتقاليد فما فكرت . إن المجتمع الخامد الهادئ . . النائم ليل نهار ؛ الساكن سكون العدم والراقد رقود الموت ، هو المجتمع الذي يخضع خضوع العبد الذليل لتقاليده . حقا كلما ازدادت قوة التقاليد انحط الشعب وضعف ، وكلما ضعف سلطانها أو زال تقريبا ازداد تقدم الشعب ورقيه . إن نظرة واحدة إلى الصين تقابلها نظرة إلى الولايات المتحدة الأمريكية تؤيد هذه الحقيقة أعظم تأييد

لقد قيدت التقاليد التربية حين قيدت الحرية، حرية العقل الإنساني في التفكير الحر المستقل . . حين قدمت تفسيراتها الخاطئة الخيالية التي لا تتمشى مع العقل ثم طالبت الإنسان باعتناقها والإيمان بها والدفاع عنها — وأغفل العقل إذا اعترض والتفكير إذا قاوم — أليست تقاليد الآباء والأجداد ؟ !

حقا لقد لعبت التقاليد دورها التربوي الخطير خلال التاريخ ؛ فهي التي سيطرت داخل المدرسة عن طريق الطريقة المنطقية ؛ تلك الطريقة التي وطدت نفوذها وسلطانها حتى أصبح من المعتاد مثلا أن يطالب التلميذ بحفظ هذا وترك ذاك دون أن يعلم السر في ضرورة حفظ هذا أو ترك ذاك

لم يقبل العقل الإنساني الخضوع لديكتاتورية التقاليد ، فكان أن ثار وتذمر واندفع يحطم تلك العبادة . ألا يتجلى ذلك في مختلف الحركات الكبرى والثورات الفكرية التي قام بها كبار الفلاسفة والمفكرين خلال العصور ؟ ! نعم يتضح ذلك جليا في كثير من المواقف . في موقف أخناتون خلال التاريخ القديم ، وفي قيام الكثيرين من كبار المصلحين في الدين المسيحي وفي الإسلام . . في مارتن لوثر وفي جان الدين . ولكن بالرغم من قيام الكثير من هذه الحركات لهدم أصنام التقاليد أنها غدت بدورها وقد حلت محل التقاليد . ويتجلى ذلك في التعاليم الدينية بوجه خاص ؛ ولا سيما حين قام المتأخرون من رجال الدين وأخذوا خلاصة التعاليم والحكم وقاموا بترتيبها وتنسيقها ؛ تاركين الظروف التي دعت إليها؛ أو بعبارة أصح قاموا يدرسون الدين ويعلمونه على الطريقة المنطقية تاركين الطريقة النفسية الطبيعية في تعليمه ، وكانت نتيجة ذلك أن أصبحت تعاليم الدين مسيحية كانت أو إسلامية ، وقد اندمجت في التقاليد بل واختلطت بها اختلاطا تاما ولم يتورع رجال الدين عن التمسك بحرفيتها ، ووقفوا حراسا على قدسيتها . ومن طريق هذا السياج المقدس من التقاليد الدينية ، استطاعوا إقامة تلك الديكتاتورية الدينية التي كانت أشد وأقسى من ديكتاتورية

التقاليد الاجتماعية المادية . وقد امتازت العصور الوسطى بتلك الديكتاتورية الدينية المتحكمة . وبقدر شدة الضغط الذى عاناه المجتمع ذلك الحين ، بقدر ما تولد الانفجار قويا شديدا . ذلك الانفجار الذى يتمثل فى انطلاق التفكير الحر الذى اتجه أول ما اتجه إلى نسف تلك الأغلال والقيود . قام مارتن لوثر يحتج ، وانفصل أنصاره عن الكنيسة الكاثوليكية فتلاه اليسوعيون بحركة إصلاح ولذلك كانوا أقرب إلى رضاء المجتمع . حدث هذا فى المجتمع المسيحى بينما اشتدت ظاهرة التصوف فى المجتمع الإسلامى ، وكانت حركة التصوف كحركة مارتن لوثر ترمى إلى التحرر من سيطرة التقاليد الدينية بنبذها وعدم التقيد بها ، كذلك وجدت فى المجتمع الإسلامى وكان إصلاحية لم تلجأ إلى نبذ التقاليد الدينية دفعة واحدة بل إلى تنقيتها وتثبيت الصالح منها ، وقد قامت هذه الحركات على يد كبار المصلحين من السنيين كابن تيمية وغيره الذين قاموا بدور شبيه إلى حد كبير بذلك الدور الذى قام به اليسوعيون . لقد كانت هذه الحركات فى كل من المجتمعين المسيحى والإسلامى ، ترمى إلى التحرر من سيطرة التقاليد العمياء ، لا عن طريق نبذها واحتقارها وإنكارها ، بل عن طريق فهمها وبث الروح فيها ، أو بعبارة أصح عن طريق تعلمها وتعليمها بفهم الظروف أو الدواعى التى أدت إليها ، أى بالسير وفق الطريقة الطبيعية النفسية . وهكذا ظل المجتمع الإنسانى خاضعا لسلطان التقاليد ، يتخلص من احتلالها البغيض حينا ليقع فى أحابيلها ثانيا ، سواء باسم الدين أو باسم السياسة . ويوضح ذلك التخبط بجلاء تاريخ الجزء الأخير من العصور الوسطى حتى مطلع العصور الحديثة ، ذلك الجزء الذى يمثل بحق تأرجح المجتمع بين ديكتاتورية التقاليد وبين رد الفعل الذى يحدث عادة متى تحرر المجتمع من كل شئ ونبذ كل قيد . . . متى تذوق الحرية المطلقة

حقا إن النهضة الأوربية ثم جهود جاك جاك روسو ثم جهود أعلام التربية فى العصر الحديث ما هى إلا بعض مراحل الكفاح ضد التقاليد ، ما هى إلا حركات ترمى إلى التخلص من قيودها وإحلال الحرية وتوطيد دعائمها محلها

ويتضح من ذلك العهد السريع أن رسالة المربى يجب أن تتجه إلى العمل بالطريقة النفسية ونبذ الطريقة المنطقية ، أو بعبارة أصح فى القضاء على ديكتاتورية التقاليد وإقامة توائم الحرية

وهنا يحق لنا أن نتساءل عن معنى الحرية . . . تلك التى يجب على المربى أن يجعل من المحافظة عليها بعض أهداف رسالته الكبرى فى الحياة ؟ !

ذلك هو موضوع المقال القادم بإذن الله

كمال السيد درويش

ليسانسيه الآداب بامتياز — دبلوم معهد التربية العالى

مدرس بالرمل الثانوية

ظهرت الطبعة الثانية للرحلات الأولى والطبعة الأولى للرحلات الثانية من كتاب

رحلات

لصاحب العزة الدكتور عبد الوهاب عزام بك

سفير مصر فى الباكستان

ثمن كل مجلد ثلاثون قرشا عدا أجرة البريد

والمجلدان يطلبان من مجلة الرسالة ومن المكتبات الشهيرة